التاريخ الاجتماعي وايديولوجيات المجتمعات

جورج دوبي

بديهي القول ان كتابة تاريخ المجتمعات يجب ان تستند الى تحليل البنى المادية . فلا يمكن ان يتضح ، بجلاء ، تنظيم الفئات والتكتلات العائلية او متحدات الجوار والتجمعات والعصب والشركات والقطاعات ، ولا طبيعة وصلابة الروابط التي تشدها الى بعضها البعض، ولا وضعية الافراد في هذه الشبكة من العلاقات ، ولا موقعهم ضمن تراتبية الفئات المعقدة ، ولا توزيع السلطات فيما بينهم . .

كل هذا لا يفهم دون ان تتجمع لدينا اولا كل المؤشرات التي تتيح اعادة بناء الحيز الذي شغله الناس واعدوه واستثمروه ؛ ولا يفهم ايضا دون الالمام بمختلف الحركات التي طبعت تطور السكن ، ودون تحديد مستوى تقنيات الانتاج ووسائل الاتصال ، ودون ادراك الطريقة التي

جورج دوبي

استاذ في الكوليج دوفرانس ، من ابرز مؤلفاته :

ـ اطروحته حول المجتمع في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في اقليم الماكون

La Sosiété au XI et XII Siècles dans la région mâconnaise .

(الطبعة الثانية صدرت عن دار موتون ، باريس ، ١٩٧٣)

ـ السنة الالف «L'An Mille» (طبعة ثانية غاليمار ـ جوليار ، مجموعة ارشيف ١٩٧٣) .

ـ معركة بوفين : محاربون وفلاحون Guerriers et Paysans. La Bataille de Bouvines : غاليمار ، ١٩٧٣) .

ـ عصر الكاتدرائيات : Le Temps des Cathédiales (غاليمار ، ١٩٧٦) .

---

* « كيف يكتب التاريخ » قضايا جديدة ـ منشورات غاليمار ـ باريس ١٩٧٤ .

على اساسها وزعت الاعمال والثروات والعائدات واستعملت الفوائض . فان التطور الهائل الذي اصاب البحث التاريخي ، خلال السنوات الثلاثين الاخيرة ، في ميادين الاقتصاد والديمغرافيا (علم احصاءات الشعوب) ، ومؤخرا في علم البيئة (دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها) ؛ هذا التطور اصاب ايضا التاريخ الاجتماعي ووضعه على طريق التقدم واحراز النجاحات . لكن مواصلة هذه النجاحات تبقى مع ذلك مرتبطة بتحسين وسائل جديدة من الاستثمارات ، وباعادة النظر في قراءة الوثائق واستغلال مصادر جديدة ، وبالكشف والتنقيب عن ميادين جديدة للبحث .

في الواقع ، ينبغي لنا ، من اجل فهم تنظيم المجتمعات البشرية وادراك القوى التي دفعتها الى التطور ، ان نركز انتباهنا على الظاهرات الذهنية ، بقدر ما نهتم بالظاهرات الاقتصادية والديمغرافية ؛ لان تدخل الظاهرات الذهنية في تنظيم المجتمعات هو ، دون شك ، عامل اساسي . فالناس لا ينظمون سلوكهم تبعا لظروفهم الحقيقية ، وانما تبعا للصورة التي يكونون قد رسموها عن انفسهم والتي لا يتوصلون ، بسلوكهم ، الى التعبير عنها بأمانة . لهذا نراهم يبذلون قصارى جهدهم كي تأتي الصورة المرسومة مطابقة لنماذج سلوكهم والتي هي نتاج ثقافة معينة ؛ وقد تتوافق هذه الانماط ، بطريقة ما ، خلال التاريخ ، مع حقائق مادية .

ان تشابك الروابط الاجتماعية والتيار الذي يسبب تحولاتها ، يحدثان ضمن اطار نظام القيم ، الذي يظن جميع الناس ، انه يوجه تاريخ هذه الروابط : هذا النظام يحكم سلوك كل فرد تجاه سائر اعضاء الجماعة التي ينتسب اليها ، وعلى اساسه تنشأ اوامر الاكراه التي يقبلها الفرد او يحاول مخالفتها ؛ لكن كل واحد يعرف جيدا ان الاخرين يحترمون هذه الاوامر . داخل هذا النظام يتفتح وعي الانسان او يخمد ، هذا الوعي الذي يتكون ضمن الجماعة ، او ضمن الفئة او الطبقة ؛ وقد يتكون من المسافة التي تفصل الانسان عن الطبقات او الفئات او الجماعات الاخرى . ان اهمال هذا الوعي يقلل من مستوى اي تحليل للتصنيف الاجتماعي ولديناميته . نظام القيم هذا يجعل قواعد الحقوق ومراسيم السلطة محتملة او غير محتملة . وفيه تكمن اخيرا مبادىء العمل الذي ينعش مستقبل الجسم الاجتماعي، ومنه يستمد التاريخ معناه ، المعنى الذي تنسبه كل جماعة الى تاريخها الخاص ؛ وفيه ايضا يتجمع احتياطيها من الاماني . انه يمد بالغذاء تلك الاحلام والافكار الطوباوية التي تتطلع الى مستقبل افضل وتتمناه ؛ ويحدث ان يتقاتل الناس من اجل المستقبل ، لكن افكارهم قد ترتد نحو عصر ذهبي مثالي خلاب ، او قد تقفز باتجاه المستقبل ، لتبني عالمها .

ان نظام القيم يبقي الناس في حالة من القصور الذاتي والاستسلام ، لكنه في الوقت عينه يتضمن بدور كل محاولات الاصلاح ، وكل البرامج الثورية ، وقوة الدفع لكل التحولات المفاجئة .

ومن اهم الاعمال التي يعود الفضل فيها اليوم الى علوم الانسان ، هو الوصول الى قياس مدى ضغوط الظروف الاقتصادية ، وسط مجموعة من الاعمال المتبادلة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة اخرى الوصول الى قياس ضغوط مجموعة التقاليد والقواعد الاخلاقية والنواهي التي يصفها الناس . وطرق التحسين التي يقترحونها . (في هذا المضمار نستطيع ان ننوه بمساهمة المؤرخين) . فنظم القيم ، التي تنتقل دون تغير ظاهر ، من جيل الى جيل ، بواسطة طرق واساليب التربية المختلفة ، ليست جامدة ، رغم انتقالها ، بل انها تملك تاريخا خاصا ، له انطلاقته ومراحله التي لا تتطابق مع انطلاقة ومراحل تاريخ السكن ووسائل الانتاج . فالنظر اذن الى علائق الارتباط بين البنى المادية والذهنية يجب ان يتم من خلال حالات التنافر هذه ، اذ هي التي تتيح التمييز بينها بوضوح تام .

وهكذا يتسنى لنا ، على المديين القريب والبعيد ، دراسة الحالات الذهنية في مدى واسع ، ولا تصح كتابة تاريخ المجتمعات دون هذا المدى . وفي هذا الميدان بالذات ، ميدان دراسة الحالات الذهنية الذي لم يخض احد غماره بشكل جيد ، ينفسح المجال رحبا امام البحوث المستقبلية ، وتندرج بالضرورة دراسة الايديولوجيات .

ان في كلمة ايديولوجية غموضا وفي معناها ابهاما ، وذلك لكثرة ما استعملت في السياسة . لكن المؤرخ يجب ان يتقبلها في شمول معناها وان يحاول طرح ما علق بها من مغالطات . نحن نفهم بكلمة ايديولوجية ، كما يعرّفها لويس التوسير ، « نظاما (له منطقه وتماسكه الخاصان) من التصورات (صور ، اساطير ، افكار او مفاهيم بحسب الظروف) يتمتع بوجود ودور تاريخي ضمن مجتمع معين » .

ضمن هذا السياق من التحديد نستطيع القول ان الايديولوجيات تقدم عددا من الملامح ، نرى من المناسب ، بادىء ذي بدء ، اظهارها :

١ ــ تظهر الايديولوجيات كنظم متكاملة ، وهي شمولية في نظرتها وتدعي الاحاطة بكل شيء ؛ وتقدم عن المجتمع وماضيه وحاضره ومستقبله ، نظرة كلية تتكامل مع مجموع الرؤية الى العالم . وحتى عهد قريب ، بقيت اشكال المجتمع ذات صلة وثيقة مع علم الكون ومع اللاهوت ، غير منفصلة عن نظام المعتقدات السائد . ففي اوروبا القرون الوسطى ، مثلا كان كل تصور للروابط الاجتماعية يستند بالضرورة الى نصوص المسيحية الرئيسية .

٢ ــ ان الايديولوجيات ، التي من اولى وظائفها نشر الطمأنينة ، هي في الوقت عينه عامل تشويه . فالصورة التي تعطيها عن التنظيم الاجتماعي تبنى على دمج الانحرافات وتغيير المواقف السياسية والاعوجاجات ، وعلى عملية رسم آفاق المستقبل ، واللعب بالاضواء ، في محاولة لاخفاء بعض الفصول ، بتسليط الانوارعلى فصول اخرى ، كل هذا يتم بقصد ضمان

خدمة مصالح خاصة . وهكذا استطاعت الصورةالثنائية ، والاصح المانوية ، التي كانت تضع وجها لوجه « الاقوياء » و « الفقراء » ، في الفكرالكنسي للقرن التاسع ، استطاعت ان تشجع الكنيسة والملكية ذات المصالح المتوافقة ، وان تقاوم ضغوط الارستقراطية العلمانية ، لكن هذه الصورة كانت وما تزال تحجب عن عقول احدثالمؤرخين للمجتمع ، بعض الوظائف الاساسية ، الاجتماعية والاقتصادية لاسياد الريف .

٣ ــ ينتج عن هذا ، ان عدة نظم لتصور المجتمع تتعايش جنبا الى جنب ، في مجتمع معين ؛ ويؤدي تعايشها الى التنافس فيما بينها ، بشكل تلقائي . هذا التعارض قد يكون ، في جزء منه ، شكليا وناتجا عن وجود عدة مستويات ثقافية ؛ وقد يعكس صراعات تنشأ احيانا عن تقارب اثنيات متباعدة ؛ لكن هذه الصراعات تبقى دائما محكومة بروابط القوة والجبروت ؛ اضف الى ذلك ان عددا من الملامح المشتركة تقارب بين هذه الايديولوجيات ، لان العلاقات المعاشة، التي ترسم صورتها الايديولوجيات، هيذاتها ؛ ولانها تنشأ داخل مجموعة ثقافية واحدة وتعبر عن نفسها بالصيغ ذاتها . لكن يتراءى لناأحيانا ان هذه الايديولوجية هي صورة معكوسة عن الاخرى التي تتعايش معها . فالحب الاباحي، الماجن و « الوثني » مثلا ، يظهر ، في مسيحية القرن الثاني عشر ، وكأنه صورة معكوسة بشكلخادع للعلاقات العاطفية المعاشة في اوساط الاقطاعيين وشركائهم ، وفي الاشكال الجديدةلعبادة العذراء مريم . ان النظام الايديولوجي ، اهم مسرحية تمثل على خشبة المسرح العالمي ،وتبدو مواقف الفرسان العازبين بمثابة حجاب للمواقف ، التي كانت العادات العائلية وتحجرالروابط الاقطاعية ، تحرمهم من اشباعها ، اضف الى ذلك ان الاخلاق ، التي كانت تعمل الكنيسةعلى نشرها ، كانت تكبح جماح التجاوزات .

٤ ــ ان الايديولوجيات ، اضافة الى كونها شمولية ومشوهة ومتناحرة ، فهي تعمل على الاستقرار وتثبيت الاوضاع . هذه هي حالة نظم التصورات التي تهدف الى المحافظة على الامتيازات المكتسبة للشرائح الاجتماعية المسيطرة ، لكن الحالة تصدق ايضا على النظم الاخرى المنافسة ، التي تعطي صورة معكوسة عن النظم الاولى، حين تدافع عنمصالح الطبقات الاخرى. فالتنظيم الاجتماعي المثالي الذي تحلم به الايديولوجيات الاكثر ثورية ما زال هو المتبقي كمؤسسة نهائية ، بمعنى ان هذه الايديولوجيات تحث على الوصول اليه : لا وجود لايديولوجية طوباوية واحدة لا تدعو الى الثورة الدائمة . انما هذا الميل الى الاستقرار يعود الى كون التصورات الايديولوجية هي نوع من الجاذبية الكابحة لكل نظم القيم ، التي تقوم هيكليتها على التقاليد . فصلابة مختلف قنوات التربية ، والاستمرارية الشكلية للادوات اللغوية ، وفعل الاساطير وتأثيرها ، والتردد العفوي حيال التحديد الذيبدأ يضرب كل آليات الحياة في ابعادها ؛ كل هذه تقف عائقا امام التحولات التي ينتظر ان تطرأخلال عملية انتقالها من جيل الى جيل . اما الخوف من المستقبل فانه يجعل الايديولوجياتتعتمد تلقائيا على القوى المحافظة ، اذ نراها هي التي تهيمن على معظم اوساط المثقفين ، الاوساطالتي تتقارب وتتداخل في قلب الجسم الاجتماعي ؛ ومما يؤازر مقاومة التغيير هيكليةتقنيات الانتاج، هذا ما يحصل مثلا في المجتمعات ذات الاسس الزراعية القوية ؛ فان استمرارها في العيش يرتبط بأستمرار نظام المكتسبات

التجريبية المتماسك والمتوازن ، لكن توازن هـذا النظام، الذي هو حصيلة جهود طويلة من التكيف مع الظروف الطبيعية ، سريع الاختلال ، بالمقدار نفسه الذي يكون فيه امتلاك التقنيات .

هذه المجتمعات تعيش اذن في خوف من تجربة الجديد ، لئلا تخاطر بفقدان توازنها ؛ وهي ، كي تحمي نفسها ، تنغلق ضمن قوقعة من العادات ، تجد اسسها في احترام حكمة القدماء ، اهل الثقة . مع ذلك يظل النظام المحافظ مستنداً ، عادة وبشكل قوي ، الى التراتب العائلي بالذات . فالفئات المسيطرة ، التي تخدم مصالحها انماط ايديولوجية معينة ، اكثر من غيرها ، لا تحرم نفسها من الكماليات والترف خاصة عندما ترى انها متفوقة ، ماديا ، على غيرها من الفئات ، مدعية انها تشجع على التجديد في ميدان الجماليات وتجاري روح العصر . لكنها، في قرارة نفسها ، تعرف الى اية حدود يجب ان تصل ، فهي تحرص على الدفاع عن نفسها ضد اقل التغييرات سطحية والتي قد تثير جدلا حول سلطاتها والامتيازات التي تتمتع بها . لهذا يمكن القولّ ان مقاومة التغيير تصل الى اعلى درجاتها عند رجالات الدين من كل المراتب ، لانهم هم الذين يتشبثون ، اكثر من اي فئة او اشخاص ،بانقاذ المفاهيم والمعتقدات وقواعد الاخلاق التي تشكل دعامة القوة التي يتمتعون بها ، ودعامةالامتيازات المعترف لهم بها .

ان الميل ، اخيرا الى المحافظة يحركه ايضا التيار الموجود في كل المجتمعات ، التيار الذي يدفع الانماط الثقافية الى التحرك من درجة الى درجة ؛ من قمة السلم الاجتماعي ، حيث تشكلت هذه الانماط استجابة لاذواق ومصالح الاجهزة القيادية ، الى الاوساط الدنيا والرثة، التي يعملون على خداعها وامتلاكها . هذه العملية من التعميم المستمر ترافقها عملية من التشويه للتصورات الذهنية ، تطيل عمر بعض الاوضاع ؛ وهكذا تساهم الطبقات المهيمنة ، تحت ستار العصرنة السطحية التي تتباهى بها لتميز نفسهاعن العامة ، تساهم في المحافظة على رصيد راسخ من الرجعة الى التراث ؛ هذا الرصيد يمد العقل المحافظ بالاسانيد الثابتة .

٥ ــ كل النظم الايديولوجية ، في الثقافات التي نستطيع ان نكتب تاريخها ، تبني اسسها على رؤية هذا التاريخ ، تاريخ الثقافات التي ترسي مداميك مجتمع الغد الافضل من مقلع الماضي التليد ، واخباره الموضوعية او الاسطورية . كل النظم تدعو الى الامل وتشجع على العمل . اذن نستطيع القول ان كل الايديولوجيات هي « عملية » ، وتساهم في تنشيط حركة التاريخ . لكن قد تحدث ، من خلال هذه الحركة ، تحولات في الايديولوجيات ، وذلك لثلاثة اسباب رئيسية :

ا ــ بين العلاقات المعاشة والتصورات التي ترتسم عنها في اذهان الناس توجد وشائج وثيقة ، مما يجعل التصورات تتلقى ، عاجلا ام آجلا ، اصداء التغييرات التي تصيب العلاقات .

ب ــ من جهة اخرى ، وفي اطار المنافسة المستمرة ، التي تضع وجها لوجه، فئات الاعمار او الفئات التي تباعد بينها المصالح المتضاربة ؛ وفي ميدان الصراع الذي يزداد حدة كلما تسارعت عملية التطور الاقتصادي والديمغرافي ؛ او عندما تحدث تحولات داخل البنى

السياسية ، نتيجة لهذا التطور . في اطار كل هذا يجب ان تتكيف الايديولوجيات ، كي تستطيع ان تقاوم على اكمل وجه ، او ان تنتصر ؛ وفي مواجهتها للايديولوجيات المناوئة ، يجب ان تتصلب او تلين ، ان تؤكد نفسها او تغيب ، محتجبة تحت ستار المظاهر الجديدة . لكن عندما تجد نفسها في وضع قوي ينبغي لها الاندماج ، جزئيا ، في النظام ، الذي تشكله الصور او الانماط التي تتهددها من الخارج ، وان تحتوي هذه الصور والانماط وتخضعها وتستخدمها لتدعيم اوضاعها .

هكذا كانت حال الكنيسة المنتصرة في القرن الثالث عشر ، اذ نجحت في بسط سيطرتها على انتشار بدعة الالحاد التي نادى بها فرنسوا داسيز ؛ فاضطرت، من اجل احتواء اقتراحاته المتكاملة ، المتضاربة مع وجهة نظرها ، ان تحل تنظيمه ، وان تلغي بعض النصوص ، وتقف حينا مواقف لينة ، واحيانا مواقف قمعية ، وان تزيل ما كان نافرا في الفرنسيسكانية ، وان تتبنى من افكاره ما كانت تستطيع ان تذيبه وتدخله في محاور بنائها المادية والروحية ، بهدف تقوية هذه المحاور واسنادها ؛ ولقد توصلت اخيرا ، انما بعد جهد ، ان ترسم صورة جديدة لفرنسوا داسيز وان تصوغ دعوته صياغة جديدة ، الى حد ان جعلهما مألوفتين .

خلال هذه العمليات من الصراعات والنزاعات والاخذ والرد والدمج ، التي تؤلف نسيج تاريخ الايديولوجيات ، تلعب بعض الاوساط الاجتماعية دورا رئيسيا ؛ وعلى المؤرخ ان يولي اهتماما خاصا بالاشخاص الذين تخولهم مراكزهم المهنية ان يكونوا في الصفوف الامامية من المعركة ، وهم الذين يكتشفون ، قبل غيرهم ، العوامل الاساسية التي تحرك القوى المحافظة وقوى المقاومة او القوى الفاتحة ، ويعرفون من هم انصار التسويات اللازمة . اننا نعني ، بالدرجة الاولى ، كل الاخصائيين الذين توكل اليهم المجتمعات القائمة امور التربية وشؤون التعليم . ونعني ايضا اولئك الذين يتكلمون باسم فئة اجتماعية معينة ولا يتحدرون غالبا من صفوفها ، انما قادتهم اليها احباطات معينة كانت دافعا للقطيعة بينهم وبين الفئة التي منها خرجوا وعنها تخلوا ؛ فبدأوا بمهاجمتها ؛ معتمدين ، في معركتهم تلك ، على تشكيلات اجتماعية اخرى متناحرة ، طبيعيا ، فيما بينها ؛ عاملين على تدعيم الاوضاع الايديولوجية لهذه التشكيلات ، بما لهم من رصيد من التجارب والمعارف ؛ وقد يكون دافعهم الى ذلك ، بعد ان انكروا موقعهم الطبقي ، الطمع بمنافع مهنية . هذه هي حال العديد من المثقفين الذين تستخدمهم الشرائح القيادية وتجعلهم خدما لها .

ج ـ وقد يحصل ، اخيرا ، ان بعض النظم الايديولوجية تتحول ، عندما ترى ان مجموعة المثقفين التي تغطيها قد تأثرت بالثقافات الاجنبية والمجاورة ، اذ لا يعقل ان تكون هذه المجموعة منعزلة كليا . هذا التأثير يتم غالبا عندما لا يتساوى رابط القوى بين الحضارات المتواجهة . في هذه الحالة ، قد تكون الهجمة شرسة ، وخاصة عندما ترافقها اضطرابات سياسية يحدثها الاجتياح او الاستعمار ؛ وقد تكون غادرة تنتج عن الاغراءات التي تولدها من بعيد المعتقدات والافكار او طرق العيش المغرية . اخيرا قد يكون الاخذ عن الثقافات الاخرى متعمدا ، ذلك لان

الايديولوجيات تبحث في كل مكان عن وسائل تساندها ؛ هذا ما حل بآداب الغزل في الغرب خلال القرن الثاني عشر : اغنت تصوراتها الذهنية ، وصيغها واشكال تعبيرها بالغرف من ثقافة اللاتين القديمة ومن الثقافة الاسبانية المتأثرة بالاسلام .

ان التيارات التي توقظ الايديولوجيات من جمودها الطبيعي هي ، عادة ، بطيئة ولا تحدث مطلقا خضات : انها مستعدة عادة لتقديم تنازلات من اجل امتصاص التغييرات القوية التي تحدث على الصعيد الاقتصادي او السياسي . لكن يبدو ان هذه النظم هي في تطور مستمر . لا جدال اذن في ان الايديولوجيات هي موضوع من موضوعات التاريخ .

* * *

ولا تغيبن عن البال الصعوبة الكبيرة التي تواجه العاملين في ميدان تاريخ الايديولوجيات . فهي تكمن ، بالدرجة الاولى ، في جمع الشواهد .

ان ما يصمد ، في واقع الامر ، من معظم نظم الماضي الايديولوجية هو نتف قليلة ، مشوهة وملزمة . هذا هو وضع الايديولوجيات « الشعبية » . نعني بذلك ايديولوجيات كل الاوساط الاجتماعية التي لم تصل الى ادوات ثقافية تقدر ان تعبر بواسطتها عن رؤية للعالم ، بأشكال تدوم .

وقد اتاح الانتباه الذي اولته الفئات الحاكمة لهذه الرؤية ، اتاح احيانا فرصة للكشف عن هذه الاشكال التعبيرية ، لكن الصورة ، بهذه الطريقة ، تبقى مهتزة ، ناقصة ومشوهة .. وهذه هي حال الايديولوجيات الرافضة التي تراجعت وانكفأت الى زوايا الذاكرة ولم تترك سوى نتف مبعثرة ومبهمة ؛ لا يمكن كشفها الا من خلال طرق القمع التي كانت الفئات الحاكمة تلجأ اليها للقضاء على هذه الايديولوجيات ، أي يجب البحث في ردود الدعاية المضادة ، وفي وثائقها، وفي التعليمات المعطاة الى المحققين ، وفي حيثيات احكام الاعدام . هذه كلها تتيح لنا اعادة بناء ورسم بعض ملامح هذه الايديولوجيات .

أما الوثائق فهي لا تكشف سوى الايديولوجيات التي تستجيب لمصالح وتطلعات الطبقات الحاكمة ، لان هذه الاخيرة ، هي وحدها التي تسيطر على وسائل بناء موضوعات الثقافة ، موضوعات لا تزول وآثارها هي التي تقدم الى التحليل التاريخي . زد على ذلك ان توزيع السلطات يسمح لهذه الايديولوجيات فقط برؤيةالنور وبالانتشار وبالتسرب الى كل اشكال التعبير ؛ ويتيح تمرير نظم التربية والاعلام تدريجيا ، وذلك عن طريق التمثيل او بواسطة الاغراءات التي تمارسها ، بشكل طبيعي ، النخب الاجتماعية بطرقها الخاصة ومواقفها تجاهالفئات الدنيا ؛ هذه النخب تقذفها الاوساط المسيطرة الى الواجهة .

هذا مبدأ منهجي اساسي ، يجب الا يغيب عن أذهاننا ، وعلينا العمل بجد على تصحيح الاخطاء المحتملة التي يمكن ان يولدها عدم اتباع هذا المبدأ .

فهل ان ادراك النظم الايديولوجية المنتصرة يتم دون مشقة ؟ انه من المستغرب ان تكون هذه المجموعات المعقدة ، في مجموعها ، موضوع تعبير واع . فالصورة ، وان تكن مرتبطة عن معرفة بسياق واضح لمذهب ما ، تبقى مجتزأة : ان قسما كبيرا منها يبقى محتجبا في ما لم يدخل بعد حيز الصياغة ؛ ومن اجل الكشف عما ليس مدونا يجب العودة الى السلوك ، الفردي والجماعي ، والعمل على تحليله ، لان الايديولوجيات تحجب هذا السلوك ، بقدر او بآخر .

وكل من اراد اعادة بناء الايديولوجيات ، في شموليتها ، عليه ان يجمع العديد من الدلائل ، المتناثرة هنا وهناك ، والتي هي دائما ناقصة ومشوشة ، ومن بينها الرواسب السلوكية التي ظلت حية . ان نبش النظم الايديولوجية من بين ركام الماضي يفرض الكشف والاستدلال عن عدد من المؤشرات المتفرقة والربط بينها وتفسيرها . فعلى المؤرخ ان يحل الرموز ويوضح النصوص الرمزية ، وعليه ايضا ، خلال قيامه بهذه العمليات، ان يتحرر قدر المستطاع من الالتزامات الايديولوجية التي تسجنه .

ومن بين المصادر الوثائقية ، الانسب والاوضح في دلالتها ، تندرج كل الكتابات الدعاوية ، والدراسات عن السلوك الصالح ، والخطب الدينية الحاثة على التقوى ، والبيانات ، والمقالات النقدية ، ورسائل الهجاء ، والمواعظ ، والمدائح ، وشواهد القبور ، وكتابة سير الابطال الافذاذ ؛ وبشكل عام كل التعبيرات الشفوية التي يعطيها وسط اجتماعي عن الفضائل التي يجل والرذائل التي يكره ؛ هذه التعبيرات يستخدمها الوسط للدفاع او لنشر الاخلاق التي من معينها يغرف عقله الخلقي . فمن شاء متابعةابحاث من هذا النوع عليه الا يهمل ابدا اي نص : ففي لغة القصص ، والاعمال الادبية التي تصورالمآسي ، والرسائل والكتب الفكرية ؛ وفي لغة اللاهوتيات والقوانين والاعمال التشريعية ، تلك اللغة المحافظة اكثر من اي لغة اخرى ؛ من الضروري العثور على العبارات الدالة وصياغةالجمل والاستعارات وطريقة رصف الحروف لتؤلف اصواتا ؛ وفي كل هذا تنعكس بشكل غيرواع الصورة التي صنعتها عن نفسها وعن الآخرين فئة معينة ، في فترة معينة . لكن مع ذلك تبقى الحصيلة اكثر خصبا في الوثائق غير المكتوبة ، لان الايديولوجية تجد احيانا التعابيرالاكثر دلالة وحضورا في اشياء لها دلالاتها المنظورة . فالشعارات والملابس والزينات والشارات والحركات ، والاطار حيث تجري الاعياد والحفلات وطريقة تنظيمها ، والطريقةالتي بها يجري اعداد الحيز الاجتماعي ، كل هذه خير شاهد على النظام الذي كانت الجماعاتتحلم به .

في هذا الميدان الخاص والمركزي من تاريخ المجتمعات ، يجب ان يعير البحث كبير اهتمام بكل الاعمال التصويرية ، وببناء الآثار وتزيينها ، وبالصور المحفورة او المرسومة التي هي مادة وثائقية من الطراز الاول ، اذ ان اشكال التصوير ، في كل الحضارات وفي القسم الاكبر من الماضي التاريخي ، تحمل من المعاني والدلالاتاكثر مما تحمل المدونات ؛ وتستخدم ، بفعالية ، كأسلحة هجومية واسلحة دفاعية .

ولنذكر على سبيل المثال البوابة الرئيسية لديرسان جيل ، التي تنصب في مواجهة نزعة الالحاد

الكاثارية التي سادت في اواسط فرنسا في نهايةالقرن الثاني عشر ، تنتصب على مسرح غير متحرك ، وهي تحمل جزءا من الايديولوجيةالكاثوليكية ، ومن تجليات القانون الروماني الامبراطوري العظمى ؛ اما النحت في هذهالبوابة ، الحافل بكل قدرات الاقناع ، فقد استغل استغلالا جيدا .

وفي وقت لاحق ، وجدت الكنيسة البابوية افضل مساعديها بين الرسامين العظماء ، واستطاعت بذلك ان تستأصل من الفرنسيسكانية بذور الرفض ، واستطاعت اخيرا ان تخضع هذه الحركة ، حركة الفقر الفنائي الداعية الى الحوار الحر بين المؤمن والمسيح ، لمصلحة ايديولوجية تقول بالرئاسة الكهنوتية وبتحقيقالثروة .

من المناسب بعد ذكر كل هذه المؤشرات ، العمل على جمعها ، من اجل اعادة بناء نظام متماسك في لحمته وفي تنظيمه الشكلي ، انطلاقا من الاثار التي تركها ، مركزين بشكل خاص على ما هو غير معلن . فالخطر يكمن هنا ، وهو اخطر منه في ابحاث تاريخ اقتصادي ، حيث يفسر الصمت على انه غياب . فعمليات الحذف والاسقاط تشكل عنصرا رئيسيا في الصيغة الايديولوجية : اذ يجب الكشف عن محتواها الاساسي . ويجب ان نخضع ، فيما بعد ، نظم التصورات ، الحاصلة لدينا من علم الدلالة ، الى معالجة مزدوجة : يجب القيام ببحث عميق على ضوء نظام اللغة (مجموع الظاهراتاللغوية التي تشكل نظاما معينا في فترة محددة من تطور اللغة) وذلك لتبيان ما تستطيع ان تكشفه تعابير الايديولوجية المسيطرة بالنسبة للايديولوجيات المنافسة التي تواجهها ، والتيلا تظهر غالبا الا من خلال الايديولوجية المسيطرة بواسطة تعرجات خطوطها الدفاعية والهجومية.اما من ناحية تطورها الزمني فان التشويهات الطفيفة التي اصابت هذه الانظمة ، فانها تتطلب دراسة دقيقة ومتابعة قريبة . لذا يظهر اللجوء الى طرق التسلسل التاريخي ضروريا وممكنا : فالعناصر الاكثر دلالة، بين عناصر مختلف اساليب التعبير ، التعبير الشفهي والطقسي او التشكيلي، يمكن ان تنظم ضمن مجموعات وبحسب تواريخها . هذه الطريقة تتيح معرفة ما تسرب من هنا وهناك من تعابير ورموز وحل محل تعابير اخرى ، او تراجع ثم اختفى، او برز وفرض نفسه . ويجب ان نشير هنا الى الدور الذي يمكن ان تلعبه بعض التعابير العالقةوالرواسب المستمرة في طمس التحولات التي طرات على مضمون علم الدلالة .

لكن عند هذا الحد من البحث يجب الا نعلق اهمية كبرى على التنافر بين الشكل والمعنى ؛ لان الايديولوجيات هي ، في واقع الامر ، غطاء ، نظم من التصورات ؛ هدفها طمأنة الناس وتبرير سلوكهم . فالبحث يجب ان يتركز على الاشكالوالصور والموضوعات اذ هي التي تحتل الاهمية الكبرى .

وقد يستفيد البحث من ظروف مراحل النقد الملائمة ، حيث انعكست حركة البنى المادية والسياسية على النظم الايديولوجية وجعلت الصراع فيما بينها اشد حدة . ونشهد، في سياق هذه الازمات ، وعمليات التمرد وبوادر الاصلاح او محاولات الثورة ، نشهد ظهور بنى كانت كامنة

وخفية . وعندما يشتد الجدال وتحتدم الحرب الكلامية ، فان ذلك يدفع اولئك الذين لم يهتموا قبلا بالتعبير عن افكارهم واعلانها ، الى اظهار هذه الافكار والمجاهرة بها ؛ كما تعطي دفعا متسارعا للاتجاهات البعيدة التي تنعش تطور الايديولوجية المسيطرة. ويحرك الصراع ايضا النوايا الرافضة للتقاليد ، ويؤدي هذا الى اختفاء بعض المؤشرات . لكنه يعوض عن ذلك بتوفير مادة وثائقية ضخمة ، يستمدها من المواقف المتخذة من هذا الجانب او ذاك . وفترة البحث التاريخي المناسبة هي الفترة التي تتوقف فيها نهائيا المعركة ، مع العلم ان اي نصر لفريق قد تتبعه اعمال قمعية ، لذا يجب جمع عدد من المعلومات من بين الابحاث ومحاضر الاستجوابات والقرارات التي تحفل بها سجلات المحاكم ودوائر الشرطة . ومن الطبيعي ان ترافق النصر في المعركة عمليات تحول وانتقال وعمليات تنظيم واعادة نظر في العقائد ؛ كل ذلك له دلالاته المباشرة . اما الاضطرابات السابقة على انتصار الايديولوجية فانها تعاود بروزها في اطار هذه الايديولوجية ؛ وطبيعة هذه الاضطرابات تعرفها الايديولوجية المنتصرة كما تعرفها الايديولوجيات المنهزمة ؛ ويكفي في هذا المجال ان نفكر بالتفسيرات التي اعطيت للثورة الفرنسية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، او ان نفكر بالشروحات التي دارت حول كومونة باريس اثناء الاحتفال باليوبيل المئوي لهذا الحدث .

* * *

ان اعادة تأليف نظم الماضي الايديولوجية ، انطلاقا من جزئيات متنافرة ؛ وتتبع آثار التحولات التي طرأت عليها ، ليسا في الحقيقة سوى عملية اقتراب من عمل ، يقوم على تحديد العلاقات التي تحافظ عليها الايديولوجيات ، عبر تاريخها ، مع الواقع المعاش ، واقع التنظيم الاجتماعي . ونقترح الآن قسمة البحث الى مرحلتين :

أ ـ تظهر الايديولوجيات وكأنها تفسير لوضع عيني ، وهي تنحو بالتالي الى اعطاء صورة عن التغيرات التي طرأت على هذا الوضع . لكن الايديولوجيات محافظة ، من حيث طبيعتها ، لذا فهي تتأخر في اعطاء هذه الصورة . والتوافق الذي يحدث فيما بعد بين الايديولوجيات والواقع ، يحدث بعد فترة طويلة ، انما يبقى دائما توافقا جزئيا . اما الفوارق بين تاريخها وتاريخ الروابط الاجتماعية المعاشة فيسهل قياسها ، ديالكتيكيا ، اكثر من قياس وقع نظم التصورات على حركة البنى المادية والسياسية بالذات . ويعود الى المؤرخين امر اقامة تسلسل للاحداث المتنافرة ، وعلى اساس هذا التسلسل ، يستند كل تقص وتفسير لاحقين .

ب ـ هذا التحليل للفوارق الزمنية يجب ان يقود المؤرخين للمجتمع الى نقد النظم المتماسكة ، اي ايديولوجيات الماضي ، والى فك رموزها استدلاليا ، وذلك بأن يبينوا ، في كل لحظة من تطورها التاريخي ، كيف ان ملامح الظروف المادية للحياة الاجتماعية هي محرفة ، بشكل او بآخر ، في الصور الذهنية ؛ بمعنى ان على المؤرخ ان يقيس ، بكل الدقة الممكنة وعلى ضوء دراسة التطور الزمني للتعابير ـ الواقع ان التشابك بين تعابير المعاش وما يحلم به ، في معظم الوثائق ، يجعل المحاولة شاقة ـ عمليات التوافق والتنافر القائمة بين متغيرات ثلاثة : بين الوضعية

الموضوعية للافراد والفئات والصورة الوهميةالتي وجد هؤلاء فيها تعزية وتبريرا ، وبين هذه الصورة والسلوكين الفردي والجماعي .

عند هذا الحد يتراءى لي انه من الملائم الاخذ بعين الاعتبار ملاحظات « بول فينيه » النقدية عن سير ومخاطر العمل التاريخي. اذ انها تساعدعلى التدقيق في اهداف وحدود البحث ، وعلى تعيين الطرق المؤدية الى الاهداف . هذه الملاحظات تدعو الى التعقل والاحتراس ؛ انها تجعلنا نقيس اتساع المسافات التي تفصل ، في كل مجتمع، تصرف الناس وسلوكهم، عن تصوراتهم الذهنية ، او عن نظم القيم التي يحلو لهم العودة الى ينابيعها . هذه التصرفات تندمج بقسم منها في طقوس ، وهي تعاش كطقوس ، ولا يمكن اعتبارها البتة كتعبير عن معتقدات او افكار . من جهة اخرى لا تخضع هذه التصرفات ، الا جزئيا ، لقواعد الاخلاق . فعلم الاخلاق لا يمثل في الواقع سوى « قطاع متموضع » في مجموعة ؛ وفي وسط هذا القطاع يعمل ، بطرق متنوعة ، وفقا لمستويات الثقافة وتبعا للمجتمعات والعهود . ويجب الاقرار اخيرا انه يوجد دائما « بون شاسع بين المعلن عنه على انه رسمي ، من تيار سياسي او ديني ، والجو الذي يخيم عليه ؛ هذا الجو يعيش المشاركون فيه دون ان يعوه . . . ولا يترك اثرا مكتوبا » لهذا لا يطاله البحث ولا يقع تحت المراقبة ، لكن هذا الجو بالذات هو الذي يؤثر مباشرة على التصرفات اكثر مما تؤثر الاعلانات والبيانات والتصريحات الرسمية . زد على ذلك ان هذه الملاحظات تحذر من محاولة تقديم عمل النظم الايديولوجية على حركة التاريخ. فالايديولوجيات ليست سوى « اعلام » . ويجب ان نقبل ان « الغطاء الايديولوجي لا يخدع احدا ، ولا يقنع سوى المقتنعين، وان الرجل التاريخي لا يسلم ابدا بحجج خصمهالايديولوجية عندما تكون مصالحه مهددة وفي خطر » .

لكن التصرفات ، كما يقر بذلك « بول فينيه » ، وهنا بالذات تستحق افكاره تركيز الانتباه ، تتحدد بدوافع ايديولوجية داخل بعض الاطر حيث تنشأ العلاقات الاجتماعية ، وسط ما يطلق عليه اسم « مؤسسات » ، ويعني بذلك« كل ما نسميه مثالا جماعيا ، روحا ، تقاليد جماعة ؛ وكل ما يمثل مزيجا من الطموحاتالشخصية والرقابة الجماعية ، كل ما يجعل فئة اجتماعية تحقق غاياتها ، الاكثر نبلا وترفعا من الغايات التي ينشدها اعضاؤها فرديا » ، « وضعية تقود الناس، انطلاقا من محركات ليست بالضرورة مثالية ، الى بلوغ غايات مثالية مثيرة للشبهات اكثر مما يثيرها اهتمامها بهذه الغايات بناء لميل شخصي » . هذه الاطر هي بالتأكيد المكان الذي تحدث فيه التوترات الحادة بين المبادىء والمصالح الفردية . انها تنتظم، مع ذلك، حول مجموعة من قواعد السلوك وتؤثر مباشرةوبعمق ، اكثر من اي مكان آخر ، لان كل فرد ، داخل الفئة ، ينتظر من الاخرين احترام هذهالقواعد ، كما يحترمها هو ؛ « فالمؤسسات » ، بالمعنى الذي يعطيه بول فينيه لهذه الكلمة، تشكل الحقل الذي يجب ، بالدرجة الاولى ، ان يركز فيه مؤرخ الايديولوجيات مراقباته ، وعليه ان يدرس بعناية فائقة التيارات التي تتفجر من هذه الاطر المؤسسية ، التي تطفى على التياراتوتقودها الى التواصل مع بعضها البعض ؛

ودراسة التيارات هذه تجعلنا نصل الى المستوى الذي يخولنا طرح المسألة المركزية ، مسألة الروابط بين الايديولوجيات وما يسميه « كارل ماركس » التطبيق الاجتماعي . لقد اختار « بول فينيه » ، ليدلل على صحة افكاره ، اختار من بين امثلة عدة مثل الحملة الصليبية . هذه الحملة ما كانت لتعرف النجاح ، لولا ان التناقضات ، في نهاية القرن الثاني عشر ، كانت اقل حدة بين الطبقات المهيمنة في المجتمع الاقطاعي ، وما كانت لتشد نحو الارض المقدسة سوى « حفنة من الاطفال التائهين » لو لم يضف عليها منظمو الحملة هالة الحرب المقدسة . فالصليبي المتجه الى القدس كان يشعر في قرارة نفسه انه يتفلت هكذا من ورطة لا خلاص له منها ، لكن انخراطه في الحملة كان يتم باخلاص من اجل خلاص نفسه ، وكان يعرف ان الحملة هي ملحمة الهية ، كما قيل له ؛ ومن خلال ما يعرف كان يعبر عما يحس به ، مثله مثل كل الناس » .

* * *

أود الآن ، بعد تناولي هذا المثل وتوسعي به ، ان استخلص الملاحظات المنهجية التالية :

في المجتمعات المسيحية ، في اوروبا القرن الحادي عشر ، اولئك الذين كانوا جديرين بالتفكير وبتنظيم فكرهم وباعطائه تعابير لم تمح سريعا ، هم قادة الكنيسة الذين استطاعوا تحديد ملامح نمط ايديولوجي . لكن هذا النمط لايدرس ، في حالة الابحاث الراهنة ، من خلال الايقونات ، بل ان دراسته تثير مشكلة : الا يمكن كشف هذا النمط من خلال النصوص ، النادرة جدا والتي ينبغي احصاؤها بدقة ؟ الا يمكن ايضا ان نكشف طابعه ـ ويجب ان يكون هذا موضوع تحقيقات منمطة ـ من خلال العديد من الكتابات عن طريق تنسيق بعض القصص، ومقابلة الصور، مع بعضها البعض ، ودراسة ترابط بعض الالفاظ ؟ هذا المخطط يتجاوب مع الوضعية المهيمنة، وضعية اولئك الذين اقاموه ، وهو يهدف الى تثبيت تلك الوضعية . يمكن الاعتقاد ان هذا المخطط اتخذ قوامه تحت ضغط المجابهات الحامية التي كان يثيرها ، في الوسط الاريستقراطي، خضوع هيئة القضاء الملكية وضعف سلطاتها التوفيقية وضعف ميولها الرفضية التي تكشفت، بشكل خاص وفي الفترة ذاتها ، عن نزعات الالحاد . قبالة كل هذا انتصب هذا المخطط علنا .

هذا المخطط غاية في البساطة .. من الطبيعي ان تعطي التصورات الايديولوجية عن حقيقة التنظيم الاجتماعي ، صورة مصغرة ، ضاربة عرض الحائط التنوع والتطابق والتشابك في الخطوط ، مبرزة ،على العكس ، التعارض ومركزة على المراتب والصراعات . هذا المخطط يقسم الناس الى فئات ثلاث : الاخصائيون بالصلاة ، والاخصائيون بالمعارك ، والمتخصصون بالانتاج أي الفلاحون . وفي وسط عالم بدات تحركه التأثيرات الاولية للتنامي السكاني والاقتصادي الهائل ، لا يفسح هذا المخطط مجالا « للشغيلة » الذين يهبون انفسهم ، في زحمة التجمعات السكنية في المدن ، لصناعة الاشياء الكمالية والمتاجرة بها وجمع المال . وهو يعكس بصدق بنى المجتمع الزراعي الكاملة ، هذا المجتمع الذي فوض امر خلاصه الى بعض الافراد ؛ ويتم الخلاص باستعمال السلاح ضد الاعداء المنظورين واستعمال الخطابة ضد قوى الظلام الاتية من العالم الاخر . لكن هذه الصورة الايديولوجية هي مطمئنة ، لانها اولا تخفي

التوتر بين الفئات الاجتماعية الثلاث تحت ستار من تبادل الخدمات ؛ ولانها ثانيا تبرر ، عن طريق اتمام هذه الخدمات ، عدم المساواة القائمة والبطالة ، والرخاء الذي احرزه افراد الفئتين المهيمنتين عن طريق الاعمال المتخصصة التي تضطلع بأعبائها كل واحدة منهما ، وتبرر ايضا الجهود المضنية التي ترزح تحتها الفئة الثالثة ، والاستغلال الذي يطالها . وهي من جهة اخرى تطمئن ، بقدر ما تهدف الى ترسيخ البنى التي تظهر صورتها ، تطمئن النخبة ، وكذلك الجسم الكهنوتي على مصالحهما .

هذه الايديولوجية عن المجتمع هي في الحقيقة ايديولوجية جد محافظة ، فهي تدرك الانقسامات التي تصف احكامها على انها « اوامر » ، بمعنى فئات من طبيعة لا تتغير ، محصورة ضمن حدود عازلة لا يمكن ان يتخطاها احد دون تبدل ظاهر . انها تنكر كل الحركات العاملة على رفع مستوى الطبقات ، هذه الحركات التي بدأت تتكون نتيجة تقدم وسائل الانتاج الزراعي ، ونتيجة الانتعاش المتنامي لحركة الثروات . انهاتقيم موقفها من مقاومة التغيير على اسس نظام المعتقدات ، الذي يتمثل الكون وكأنه جواب عنمدينة سماوية أزلية : فالتصنيف الاجتماعي الذي تدعي اقامته يجيب ، خارج حدود الزمانومنذ بدايات العالم ، يجيب على هدف الله بالذات . مع ذلك فان هذه الاجابة تتراءى للوهلةالاولى ناقصة ، والرؤية المانوية للعالم التيتتضمن هذا النمط الايديولوجي تصر على وجود تأثير فعال لقوى الشر ، كعوامل للاضطرابات والقلاقل ، والتي ينبغي اخضاعها . هذه الصورة الثابتة عن العالم تدعو اذن الى العمل ، وهي تطرح فكرة ايصال النمط الايديولوجي الى كمال نموذجها الالهي ؛ وهي تحث على القيام بجهد من اجل الاصلاح ، يأمل من ورائه القيمون على الكنيسة ،واضعو هذا المخطط ، ان يكونوا المستفيدين الاوائل .

على الرغم من كون الفترة ، حين يقيم التصور الايديولوجي في الوعي الجماعي ، هي فترة البنى المادية التي لم يطرأ عليها تطور ملحوظ يسمح للمعاصرين بادراكها بوضوح ؛ يبقى هذا التصور هو الحافز على الدينامية . وهذا يعود الى ان وعي التاريخ يتضمن هذا التصور . فالتاريخ ، الذي يحتل مرتبة هامة في نظام التعليم الخاص برجالات الكنيسة ، يدرك على انه مسيرة شعب الله نحو النور ؛ ويسرع هذه المسيرة ، منذ مجيء المسيح بين البشر وتدفق النعم . ويعود آلى الكنيسة دور قيادة هذه المسيرة المتقدمة نحو نهاية الازمنة ونحو نموذجية النوايا الالهية . لكن الكنيسة تجد نفسها ، منذ مدة طويلة ، تعيش في بحبوحة ورغد في مجالس الاسياد وبلاطاتهم ، وهم يضعون تحت تصرفها فائض عمل الفلاحين . لهذا فهي تنشر النمط الايديولوجي الذي يبرر تمتع رجال الدين والرهبان بمنتجات مجال عملهم ، وبالعطايا التي يغدقها عليهم آلمرتبطون بهم رعويا ،شرط ان ينصبوا أنفسهم مدافعين عن «الفقراء» أي مدافعين عن طبقة الشغيلة . لهذا السبب فانالمخطط المرسوم يقيم حاجزا ضخما بين الدرجات العليا للجماعة الكهنوتية والاريستقراطية العلمانية ، وما يلبث ، في الحقيقة ، ان يعود الموقع الطبقي المشترك ، والاصل العائلي الواحد ، ليشدهم بعضهم الى بعض . ويزيد هذا المخطط من الفرقة والتباعد بفرض اخلاقية صارمة على كل رجال الدين ، وخاصة في أوساط الاديرة ،

هذه الاخلاقية تدعو الى رفض الغنى الفردي والملذات الجسدية والاشتراك في الحروب ، ويؤكد المخطط ايضا على نشر اخلاقية تنحو الى السلم ، واضعة قواعد من اجل السلام في الله ؛ هذه القواعد التي تلغي وراء ستار الممنوعات ، وفي اشكالها البدائية ، فئة رجال الحرب . من هذا المنطلق يساهم المخطط المرسوم في جمع هذه الفئة في جسم متجانس حيث المواقف المشتركة تجعل التمايز بين الافراد، في الظروف الاقتصادية المختلفة يمحي شيئا فشيئا .

لكن الكنيسة ترى لزاما عليها دفع المعركة ، التي تقودها ضد قوى الشر ، الى الامام ؛ وترى من واجبها ايضا جعل المجتمعات الحربية مجتمعات اخلاقية ، وذلك للوصول الى الكمال في نمط المراتب الثلاث . لذا اجتهدت ، في القرن الحادي عشر على جعل الفروسية «مؤسسة» حقيقية ، قائمة على آداب اخلاقية معينة ؛ واستتبع ذلك ان تماسكت تدريجيا الايديولوجية الخاصة بفئة الفرسان ؛ ونكتشف ذلك من خلال النقد اللاذع الذي كان يوجهه لها رجال الكنيسة؛ وقد اتاحت الاعمال الادبية التي كتبت عن سير المحاربين ، اتاحت لنا ان نعرف ذلك بشكل افضل ، وقد ساهم رجال الدين ، العاملين في بلاطات الامراء ، في بناء هذا النمط الايديولوجي . مع ذلك يتراءى هذا النمط مناهضا لنمط الكنيسة الايديولوجي : فالقيم القائمة على ايديولوجية الفروسية ، وعلى تمجيد المروءة ، والسماح بعمليات السلب ، وعلى اعراس الحواس ولذة العيش ؛ كل هذه تنتصب قبالتها قيم يبشر بها رجال الدين ، تدعو الى التوبة والى نكران الذات . فالتأكيد المطرد لهذه القيم يفسر ، في الواقع ، الفرقة الحاصلة ، منذ القرن العاشر ، بين فئة ، من الطبقة المسيطرة ، انتهكت المقدسات والفئة التي نذرت نفسها للاعمال الدينية ؛ لكن المصالح المشتركة بين الفئتين ، ومواقف التغاضي التي تقفها كل واحدة من الاخرى ، وروابط العلاقات العائلية القوية ، كانت تنشىء بين النظامين تصورات ذات صلات متينة سهلت تنصير النمط العلماني .

ولقد وصلت عملية التنصير هذه الى ذروتها في الحملة الصليبية ، عندما تحرك الفرسان، فعليا او وهميا ، لتخليص قبر المسيح ؛ وشجع على هذا التحرك الضائقة المادية التي كان يعاني منها الاسياد العلمانيون ويعون ابعادها ؛ لكننا لا نعني بالضائقة المادية ازمة الدخل وثروات الاسياد ، اذا لم تكن تلك ظاهرة للعيان ، بل نعني تأثير التنامي السكاني وتنظيم واحكام قوانين بنى القرابة ، التي كانت تدفع ثاني الابناء في عائلة من الاشراف ، تدفعه الى المغامرة. وكان التحرك ايضا نتيجة لتطور الاطر السياسية ، وميل اسياد المقاطعات الى تصدير قوى العدوان والاضطرابات الى الخارج ، وهذا مما يعزز سيطرتهم . اذن لم يكن التحرك ناتجا ، فقط ومباشرة ، عن نضج ايديولوجية المراتب الثلاث ، انما نشأته كانت في الامتداد المباشر لبواكير فكر رجال الدين ، للعام الالف ، في عقول الناس . فاصلاح اخلاق فئة المحاربين لم يكن فقط في اقامة حاجز في وجه رغباتها وهياجها الجموح ، وانما بتوظيف سلاحها لتحقيق غايات الله على افضل وجه . نعني بذلك تحويل نشاطها العسكري خارج حدود المجتمعات المسيحية وتوجيهه ضد الكفرة. لهذا كان من المناسب العودة الى الاساطير القديمة التي انتشرت في الاعوام الالف ، والى الرؤى

الاخروية . فالقدس السماوية ، هدف موكب البشرية نحو كمالات النعمة ، كان لها صداها في هذا العالم ، وفي اليهودية ؛ ونحوها تحركت الشعوب للتعجيل بمجيء مملكة الله . وفي مسيرة جماعية يتصدرها رجال الدين للارشاد الى الطريق ، كان حاملو السيوف الطاهرون ، لكونهم حملوا السلاح من اجل الجهاد المقدس ، كانوا يحيطون بجماعات الفقراء ، ويسيرون جنبا الى جنب . فالجماعات ، التي تؤلف الحملة الصليبية ، المؤمنة ، باقتراب سنة ١١٠٠ ، لم تكن تفعل سوى تحقيق الصورة الايديولوجية التي خلقها مفكرو الكنيسة قبل مئة عام .

لكن ، خلال هذا القرن ، ظل التضخم الاقتصادي والسكاني في اطراد مستمر وبوتيرة متسارعة ، محدثا تغييرا طفيفا في العلاقات البشرية في اوساط الفئات الدينية ، وفي الامارات ومقاطعات الاسياد والقرى والعائلات . هذه التيارات القوية كانت تصب في قسم منها في مجرى النمو ، وقد التزم النمط الايديولوجي بالعمل ضمن هذا المجرى ، لان هذا الخط الايديولوجي كان يسترشد بنظرة واقعية ، ترى كيف كانت حقيقة الروابط الاجتماعية الاساسية ، في البلدان الفرنسية ، اوائل القرن الحادي عشر ، وكذلك حقيقة المراتب الناتجة عن الثروات والسلطات وتوزيع الاعمال . لكن هذه التيارات ، في قسمها الاخر الاقوى ، كانت تسير باتجاهات متباعدة ، فزادت هذه التيارات من التباعد بين الواقع العيني وتصوره الذهني . وبعد ان تمت الحملة ــ كان اتمامها قد تأخر بسبب البطء في نضجها والحواجز التي كانت قائمة في وجه الدعاية لها وترسيخ نمطها الايديولوجي ــ كانت الجماعات التي تؤلف الحملة تنطوي على مغالطة تاريخية ؛ فهي في الواقع ، لم تتخذ شكل هيئة ، فلم نر مجموع الشعوب المسيحية تتخذ طريقها نحو الشرق في هجرة نهائية منقذة ، ولم تعط مواكب الحجاج صورة عن بشرية طاهرة نقية ومحبة للسلام ، اي بشرية خاضعة لاخلاقية الرهبان ؛ اما رجالات الكنيسة الذين اعدوا لهذه الحملة ، فكان هدفهم من السفر الى الشرق اكتشاف قيم ، في المسيحيات الشرقية وفي الاراضي المقدسة ، قيم لا تزال مجهولة بالنسبة لهم ، ومعرفة المحركات الرئيسية التي حولت علاقاتها بالعالم ، وذلك عن طريق التأمل بمعنى تجسد المسيح وقوة الروح القدس . فأعلام الفرسان الصليبيين كانت تخفى عن سوء نية على رجالات الحرب ، كون الحملة تشكل بالدرجة الاولى توسيعا لعمليات النهب والاستمتاع التي كان يقوم بها الطامحون الى رتبة الفروسية ، وبحثا عن المجد والربح ... لكن فيما خص « الفقراء » ، الذين ساروا عشوائيا في ركاب الحملة تلبية لدعوة المبشرين ، فلا يستطيع واحدنا ان يعرف عما كانوا يبحثون وماذا وجدوا . اضف الى ذلك ان الحملة كانت تجر وراءها فئات اجتماعية لا تندرج في صورة المراتب الثلاث : متدينون دون ثقافة دينية . نساء مومسات . مرتزقة كانوا يحاربون من اجل المال ويشكلون الفرق الباسلة في الجيوش ، ووكلاء عن الامراء خرجوا من الحياة العامة ، انما كان مركزهم يرفعهم الى المقام الاول ، وجموع البحارة والمهربين والمغامرين من التجار . هؤلاء لعبوا دورا كبيرا وهاما في الحملة . في اثناء الحملة لم يعاين احد عودة المسيح ولم يجد المملكة السماوية الموعود بها ، وانما وجد الغنى واللذة برؤية بلدان جديدة ، والتخفيف من حدة وطأة التعب والخوف وخيبة الامل او حدة الاحساس بالموت السخيف . واخيرا تجسد الحلم الاكبر في بعض الدروس

السياسية ، اذ حاولت الحملة ان تدخل فـي الارض المحتلة ، قوانين غربية معدلة بشكل واه، وتجسد حلمها ، ايضا ، في النجاح التجاري الباهر الذي تحقق ، اذ مهد الطريق امام اللاتين للسيطرة علـى اقتصاديات الشرق ، وتجسد خاصة في المؤسسات المتخلفة ، والانظمة الدينية العسكرية ؛ حيث تتعلق الامال الاولى ؛ في هذه المؤسسات ، وفيها وحدها ؛ حيث يتم اتحاد في المواقف الدينية والعسكرية من اجل خدمة الله المترفعة ؛ اتحاد وسط تراتبية ، تفرق بين الفرسان المتحدرين من الاشراف ، والرقباء المتحدرين من عامة الشعب ؛ في هذه المؤسسات تحقق على اكمل وجه النمط الايديولوجي المندمج بها . زد على ذلك نتيجة اخرى مرتبطة بالاولى : انتشار الاسطورة القائلة بتقدم الغزاة ، واسطورة انتظار يوم الحساب التي غذت ، على مدى قرون طويلة ، ايديولوجيات الغرب .

* * *

اذا حاولت في عدة صفحات عرض ما يمكن ان نفهمه اليوم من انتشار نظام ايديولوجي خلال مئات السنوات ، فان ما قمت به هو من اجل دفع الابحاث في هذا المجال قدما، ومن اجل الاحاطة عن كثب بعدد من المشاكل ؛ لقد قمت بذلك حتى نستطيع الوصول على نحو افضل ، وبعد تحليل دقيق لمختلف اللغات ، وبواسطة مقارنة تعابيرها ورموزها ؛ الوصول الى ما تخفيه هذه في بعض الحقبات وما يستتر مثلا وراء اشارة الصليب او تعابير تبريك السيف ؛ وكي نستطيع الدخول في دقائق تفاصيل ديالتيك يتناول التقليد والتجديد ، ويحمل تصورا عن المجتمع ويصوغ جملة نظام المعتقدات ؛ وكي نقدر على قياس المقاومة التي كان يلقاها نظام ايديولوجي ديني، او بكلام اصح نظام اسقفي انكليكاني ؛ وعلى قياس شجاعة الفرسان وسلبية الفلاحين . الا يجب ايضا القاء نظرة على الخارج ، بعيدا عن اوساط الثقافة المسيحية اللاتينية ، اي خارج حدود القرن الحادي عشر، حتى نستجلي بوضوح تام كيف توصل المخطط المرسوم من المراتب الثلاث ـ الذي تمتد جذوره الى اطر الثقافات الهندية ـ الاوروبية ، كما بيَّن ذلك « جورج دوميزيل » ـ توصل الى احداث تغييرات بطيئة ، والى ازاحة نموذج الملكية المقدسة ، اللاهوتية ، المحاربة ، والنموذج الكنسي عن درجات الكمال الخلقي . ويجب ان نتابع ، اخيرا ، مسيرة امتداد هذا النظام الايديولوجي الطويلة ، ومجرى التعديلات المتتالية التي طرات عليه ، ومعاينة تأثيره على تطور مجمل الروابط الاجتماعية . الا نراه يثبت ، بشكل قاطع ، ازالة الاثار الباقية عن العبودية القديمة ، ويجمع اعظم الامراء مع افقر الفقراء الريفيين ، باحترام نظام القيم الواحد ، ويضيق مشاركة الاريستقراطية بالنشاطات الاقتصادية المربحة ، ويشجع ، بهذا المعنى، تصاعد الفئات الاجتماعية المتناحرة ، ويحدد اخيرا ، بمفهومه عن الطيبة والمحبة التي يتضمنها، انتقال الثروات الهائلة ؟

ان الخوض في موضوعات كهذه ، وفي مسائل شبيهة بها ، قد يثير طرحها ارساء قواعد مخططات اخرى او بعثرتها ؛ ان هذا العمل هو بمثابة تقدم نحو تكوين مفهوم اكثر دقة عن الايقاعات المميزة ، المجهولة حتى اليوم ، التي تنسجم مع تاريخ الايديولوجيات في مداه العام.

ان هذا العمل هو دون شك بمثابة تحديد موقع الروابط التي تجمع بين هذا التاريخ والتحولات التي اصابت مجمل الجسم الاجتماعي ، وبمثابة تعيين اكثر دقة لما يربط التصورات الايديولوجية بالاوضاع الموضوعية ، للافراد او الفئات ، وبسلوكها . انه عملية كشف فضلى لما بقي حتى اليوم منسيا ، رغم الحالة المتقدمة لعلوم الانسان : دور المتخيل في تطور المجتمعات البشرية .

صدر حديثا

عن معهد الانماء العربي

في سلسلة تحديث اللغة العربية

أثر القراءات القرآنية

في تطور الدرس النحوي

د. عفيف دمشقية

٨ ليرات لبنانية

في سلسلة الدراسات الاقتصادية ـ الاستراتيجية

تنظيم وتطوير

المشروع الصناعي

د. سمير التنير

وفريق الدراسات الاقتصادية ـ الاستراتيجية

٦ ليرات لبنانية

في سلسلة تحديث اللغة العربية

المنطلقات التأسيسية والفنية

الى النحو العربي

د. عفيف دمشقية

٨ ليرات لبنانية

في سلسلة الدراسات الاقتصادية ـ الاستراتيجية

التكامل الاقتصادي

وقضية الوحدة العربية

د. سمير التنير

وفريق الدراسات الاقتصادية ـ الاستراتيجية

١٠ ليرات لبنانية